

خطابات إلى الجنوب

حمادة حامد محمود نور الدين

وجدها محسن في قاع صندوق الرسائل الميتة: رسالةٌ مضى عليها أربعون عامًا، وما زال أحدٌ ما ينتظرها.

كان مكتب البريد القديم في قنا يُجهَّز للهدم، وكلّف المأمورُ محسن عبد الرازق، أصغر سعاة البريد سنًا، بفرز صندوق الرسائل التي لم تجد أصحابها منذ عشرات السنين. قال المأمور وهو يثبّت نظارته: «كل اللي في الصندوق ده يتفرم مع المبنى يا محسن. الأسبوعين الجايين والبلدوزر هنا.»

وفي قاع الصندوق، تحت طبقات الغبار، لمح محسن ظرفًا أصفر كورقة خوخٍ في الخريف، عليه طابع البصرة، ١٩٨٦، وعنوانٌ مكتوب بخطٍّ مرتعش:

«إلى السيدة أم حسنين - بجوار المسجد القديم - النجع الغربي - قنا.»

وفي الزاوية، بلا عنوان مرسِل كامل: «أخوكِ رجب - العراق.»

أدار محسن الظرف في يده. أربعون سنة وهذه الرسالة نائمة في الظلام. رفعها إلى الضوء فقرأ في باطن الظرف، بخطٍّ ثانٍ مختلف

تمامًا، سطرًا لم يكن لعين المأمور: «أم حسنين، إذا ضلّت الرسالة طريقها، فاعلمي أن قلبي ما ضلّ.»

وفي تلك الليلة لم ينم محسن. أخرج دفتره القديم وكتب فيه كل ما يعرفه: نجع غربي... مسجد قديم... أم حسنين... أخوها رجب في العراق سنة ١٩٨٢ أو ٨٣... الحرب... الحاج مبروك. وكتب تحتها سؤالًا واحدًا حوّله دوّامة: أربعين سنة، محدش في البريد كله سأل عن الرسالة دي ليه؟ ثم أجاب نفسه بنفسه، بخطٍّ صغير تحت السؤال: لأن محدش ركب الميكروباص.

سأل المأمور: «لو لقيت صاحبتها؟»

فضحك المأمور: «البريد مش رسالة سماوية يا محسن. افرم وخلّص.»

لكن محسن لم يفرم. كان أبوه، رحمه الله، ساعيَ بريدٍ قبله على نفس الخط، وكان يقول له وهو صغير: «الرسالة يا محسن مش ورق وبريد... الرسالة حد واقف على بابه مستني. ولو حد واقف مستني، يبقى لازم حد يمشي.» ومات أبوه وهو في عمر محسن

الآن، وبعدها بسنة وجدوا في جيب جلابيته المعلّقة ثلاث رسايل كان نوي يوصّلها في آخر أسبوع... وقضى محسن إجازةً كاملة يوصّلها واحدةً واحدة.

وفي يوم إجازته ركب الميكروباص إلى النجع الغربي، وقف في السوق يسأل. دلّه أول واحد على أم حسنين أُخرى، طلعت عروسًا في الثلاثين فاعتذر وخرج. وقال له ثانٍ بجفاف: «أم حسنين؟ ماتت يا ولدي، من زمان.» فانقبض قلبه، وكاد يعود أدراجه، لولا عجوزٌ تبيع الفجل نادته من عربتها: «اللي ماتت يا ولدي أم حسنين بتاعة آخر النجع. اللي انت بتدور عليها، أخت رجب اللي سافر العراق وما رجعش؟ دي عايشة، بس عينيها باظت. قاعدة مع بنت بنتها، سميرة، في البيت اللي في آخر الزقاق، اللي عليه غصن الجميزة.»

فتحت له سميرة، شابة في العشرين، وراءها في الضلعة امرأةٌ عجوز جالسة على كرسيها كأنها جزء من البيت. وقال محسن كلمته التي حفظها في الطريق: «معايا رسالة ليكي يا أم حسنين... من أربعين سنة.»

ساد صمتٌ طويل. ثم قالت العجوز بصوتٍ من ورقٍ قديم: «من مين؟»

«من رجب. من العراق.»

ارتجفت يد العجوز على عصاها. قالت سميرة بغضبٍ مكتوم: «رجب؟ اللي سافر ونسينا أربعين سنة؟ الكل في النجع بيقول اتجوز هناك وعاش وخلف وما فكرش فينا يوم. تيتة بتقول: اللي يسيب أهله ما يتسمّاش على لساني.»

لم ترد أم حسنين. سكتّ طويلًا، ثم قالت لمحسن: «اتفضّل يا ولدي، اشرب الشاي الأول. سميرة، هاتي الشاي.»

وجلس محسن على الكنبة البالية، والعجوز تسأله عن أبيه، فلمّا عرفت أنه ابن عوض الله الساعي، قرّبت وجهها منه وقالت: «أبوك كان بيسلّم عليّا بالاسم... راجل محترم.» ثم أدارت وجهها نحو النافذة وقالت، كأنها تكلم أحدًا غير الموجودين: «رجب ده كان أخويا الصغير. اللي كان بيحطّني على الحمار وهو بيجري، وأنا

خايفة وضاحكة. سافر والحرب لسه بدري... وكل سنة نقول: السنة الجاية يرجع. وبعدين بطلنا نقول.»

جاءت سميرة بالشاي، فشرب محسن رشفةً واحدة، ثم أومأ لها بالظرف. فقط قالت أم حسنين: «اقري يا سميرة.»

فتحت سميرة الظرف ببطء، وأخرجت ورقةً صفراء وورقةً صغيرة أخرى مطوية بداخلها، وبدأت تقرأ بصوتٍ يتلعثم:

«أختي أم حسنين، سلامٌ من أرضٍ بتاكل ولادها. الحرب هنا يا أختي ما بتشبعش. بعتلك الفلوس تلات مرات مع الحاج مبروك ابن النجع الغربي، اللي بيشتغل بين البصرة والقاهرة، وقلت هيجيلك الرد أكيد... ليه ما رديتيش يا أختي؟ هل الفلوس ما وصلتش؟ هل أنتِ زعلانة مني؟ وحشتني رائحة الطين يا أختي، وحشتني صلاة الفجر في المسجد القديم، ولو نجوت من المحرقة دي هارجع أقبّل تراب النجع... أخوكِ رجب.»

أمسكت سميرة الورقة الصغيرة: إيصال حوالة ممزق النصف، عليه توقيع مبروك، وتاريخ ١٩٨٦.

عرف محسن الاسم فورًا. كل النجع يعرفه. الحاج مبروك، أكبر تاجر في البلد، صاحب المخازن والأراضي، الذي بدأ ثروته في تلك السنوات بالذات، وصار رجلَ البلد الأول الذي يفصل في الخصومات ويقيم الأفراح.

قالت أم حسنين، والدموع تقع من عينين لا تريان: «رجب ما نساناش... أربعين سنة وأنا بفكر فيه زعلانة، وهو كان هناك بيكتب ويستنى.» ثم أمسكت يد محسن بيدين صغيرتين قويتين: «أنا مش عايزة فضيحة يا ولدي، ولا فلوس. أنا عايزة الناس تعرف إن رجب كان بيفكر فينا. عايزة أبكي عليه باسمه الصح.»

ذهب محسن إلى ديوان الحاج مبروك ومعه الإيصال. بيتٌ كبير ببابٍ نحاسي، وقف على مدخله ابنان من أبنائه يسألانه عن شأنه، فقال كلمةً واحدة: «من البريد... ومعايا ورقة عمرها أربعين سنة بتخص الحاج.» ففُتح له الباب.

الرجل عجوزٌ مريض فوق فراشٍ وثير، حوله أبناؤه وخدمه، وفوق رأسه صورة له وهو يتوسّط كبار البلد في افتتاح مخازنه الأولى... سنة ١٩٨٧، كما قرأ محسن على إطار الصورة، أي بعد الإيصال بعامٍ

واحد. شرب محسن القهوة التي قدّموها على مضض، ثم مدّ له الإيصال.

نظر إليه الحاج مبروك طويلًا، ولمست يده ورقة ١٩٨٦ وكأنها تلسعه. أنكر أول الأمر: «إيصالات كتير عدّت عليّا... مين فاكر؟» ثم لمّا رأى عيني محسن لا تطرفان، سكت، وأومأ لأبنائه أن يخرجوا، ودفع إلى محسن بمظروفٍ منتفخ وقال: «صفحة قديمة يا ولدي... نطيّها ونرتاح.»

ردّ محسن المظروف إليه. لكنه لم يفضحه أيضًا؛ فالإيصال ليس ملكه، إنه ملك أم حسنين، والعدل اختيارها هي. قال للحاج كلمةً واحدة قبل أن يخرج: «رجب مات يا حاج، وهم هنا ظنّوه ناسيهم. التاريخ اللي على الإيصال ده أمانة... مش صفحة.»

وفي الجمعة التالية، بإذن أم حسنين، وقف محسن في المسجد القديم بعد الصلاة، وقرأ الرسالة على الناس. لم يقرأ الإيصال. لم يذكر اسم مبروك. قرأ فقط كلمات رجب: «وحشتني رائحة الطين يا أختي...» فسجدت العجائز على الكراسي وهنّ يبكين رجلًا ظننه

الجميع ناكرًا أربعين سنة، وعرف النجع الغربي يومها أن رجبًا لم ينسَ، وأن رسالته ضلّت الطريق كما تضل الرجال في الحروب.

وقبل أن ينزل محسن عن المنبر الحجر الصغير، أضاف جملةً لم تكن في الرسالة، جملةً قالها كأنها آخر سطرٍ فيها: «الرسالة دي يا جماعة قعدت أربعين سنة في صندوق مقفول... وبرغم كده وصلت. مفيش حاجة بتضيع، بس ساعات بتتأخر عننا.»

وفي الصف الأخير جلس الحاج مبروك مطأطئًا رأسه، لا يتهمه أحد، ويفهم الجميع. وحين انفضّ المصلّون، رأى محسن رجال النجع يتناوبون على يد أم حسنين يقبّلونها، رجلًا رجلًا، كأنهم يعتذرون لرجب الذي ظلموه في ظنّهم أربعين سنة.

وبعد شهرٍ واحد: رمّم أبناء الحاج مبروك، من غير أن يطلب أحد، ميضأة المسجد القديم، وكتبوا على الرخامة اسم رجب، دون أن يفسّروا لأحدٍ لماذا. وأم حسنين؟ نامت تلك الليلة ورسالة أخيها تحت مخدّتها، ونامت أول مرة منذ أربعين سنة من غير أن تسأل السقف: ليه يا رجب؟

وقبل أن يركب محسن ميكروباص العودة، شدّته أم حسنين من كُمّه وقالت له كلمتها الأخيرة، وهي تحفظ وجهه بيديها كما تحفظ العميان الوجوه: «انت يا محسن مش بس وصّلت رسالة... انت رجّعتلي أخويا. رجب ما ماتش من أربعين سنة يا ولدي... رجب مات النهارده، وأنا بعزّي فيه النهارده، وأخيرًا هيبقى ليّا قبر أزوره ولو في خيالي.»

أما محسن، فحين هُدم مكتب البريد القديم، لم يُهدم معه صندوق الرسائل الميتة. على عربته صار صندوقٌ خشبي جديد كتب عليه بخطه: «رسايل تستاهل توصل». وصار لكل رسالةٍ عالقةٍ فرصة أخيرة: ساعيٌّ يسأل عنها في السوق، ويركب الميكروباص، ويطرق بابًا في آخر الزقاق.

تمّت

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app